

وزير التعليم العالي والبحث العلمي

الجامعة المستنصرية/ كلية الآداب

قسم الفلسفة

الموقف الفلسفي من الحرب عند الفلاسفة المسلمين

رسالة تقدمت بها الطالبة

رفقة رعد خليل

الى مجلس كلية الآداب/الجامعة المستنصرية
وهي جزء من متطلبات نيل شهادة ماجستير في الفلسفة

بإشراف

الأستاذ الدكتور

حسن مجيد العبيدي

٢٠١١م

١٤٣٢هـ

توصل البحث في موضوع هذه الرسالة إلى جملة من النتائج هي:

١. إن اختيارنا للمفاهيم في ما تضمنه المبحث الأول لم يكن عشوائياً ولم يكن مجرد توضيح لمفاهيم قد تناولها الفلاسفة اليونان والمسلمين فحسب، بل كان لكل مفهوم حضوره الخاص الذي استنتجنا من خلاله ان له أكثر من بيئة لاحتضانه، فلم يقتصر المفهوم على الموقف السياسي الفلسفي لتفسيره، بل تنوعت المدارس بين العسكرية والنفسية والاجتماعية وحتى الدينية لتفسيره ، وبذلك اكتسب كل مفهوم هوية خاصة ضمن نطاق البيئة التي طبق فيها. من جانب آخر يمكن أن نجد تداخلاً واضحاً بين المفاهيم؛ لان اغلب هذه المفاهيم لا تخرج خارج نطاق الفلسفة العملية (السياسية)، فيمكن أن ترادف بعضها بعضاً، حينما تتشابه تطبيقاتها و ممارساتها، فيترادف مفهوم النزاع مع الحرب، عندما يعرف النزاع على انه قتال بين شخصين تستخدم فيه الأسلحة، و يترادف مفهوم الثورة مع التمرد حينما يعرف التمرد على انه المقاومة المسلحة ضد السلطة الحاكمة، ويمكن أن لا ترادف وتأتي النتائج مختلفة في تحديد ماهية كل مفهوم، فيعرف البعض ان العنف هو قوه، والبعض الآخر يعارض ذلك من منطلق ان القوة أساسها تنظيم مجتمع تكون فيه الأقلية هي الحاكمة، أما العنف فهو الأداة التي تهدم هذا التنظيم، وغيرها الكثير.
٢. وفي الإشارة إلى انواع الحروب وأشكالها ضمن المبحث الثاني، وبعد أن سبرنا أغوار هذه الحروب والأسباب المؤدية إلى نشوئها، على وفق اختيار أنواع معينه تدخل في صلب بحثنا، وجدنا أن اغلب أشكال الحروب هذه تشترك في هدف وغاية واحده، هي اللامساواة، كذلك تتبع شرعيتها وسببها من ذات المنبع إلا هو اللامساواة. فالكل يسعى إلى الحرب كي لا يتساوى اقتصاديا واجتماعيا وحضاريا وحتى دينيا، الكل يسعى إلى ان يكون هو الطرف الغالب لا المغلوب.
٣. إن الحرب في الفلسفة اليونانية قبل سقراط ولاسيما عند هيراقليطس ومن بعده أنابذوقليس، تأخذ بعد جوهرى في فلسفتيهما، فمثلاً يذهب هيراقليطس؛ للتأكيد على جوهرية الحرب على أساس جوهر سياسي وميتافيزيقي في الوقت نفسه، لان

آراءه الميتافيزيقية يمكن أن تسمح بأي تأويل سياسي، وبذلك أصبحت الحرب لديه قانوناً إلهياً إنسانياً مصدره العقل الكلي. أما أنباذوقليس فقد كان ذي نزعة صوفية قادته إلى القول أن الشياطين هي المسبب الرئيسي لأي نزاع وبغضاء، لكن هذه النزعة الصوفية قد امتزجت بنزعة سياسية اعتبرت الشر والكرهية والحرب هي المفروق على الصعيد السياسي والطبيعي وما بعد طبيعي، لتتسع رقعة الشر في الكون كما رآها أنباذوقليس.

٤. أما موضوع الحرب وطبيعتها عند أفلاطون فإنها تأخذ بعداً أكثر سعة وأكثر تفصيلاً، وهو ما وجدناه من معالجات في مؤلفاته الكبرى ولاسيما الجمهورية والقوانين وغيرها، فالحرب عند أفلاطون أصيلة متجوهرة في النفس الإنسانية، ويظهر مصداق ذلك في النظام العسكري الصارم لنظام الجند الذي سنّ عليه دستور الجمهورية، الجند الذين يحرسون الدولة ويدافعون عنها، فضلاً عن أن هذا النظام العسكري الصارم هو ما يتمتع به رئيس المدينة الفاضلة بوصفه قائداً للدولة وفيلسوفاً في آن واحد. هذا من جهة، ومن أخرى نجد أن الحرب أصيلة في النفس الإنسانية بحسب تصور أفلاطون لها متمثلة في الجزء الغضبي من النفس الإنسانية الذي يسميه بالجزء السبعي، فالقسوة بحسب تعبيره هي جزء من الطبيعة الإنسانية، يمكن لها أن تتحول إلى شجاعة أو خشونة أو جبن أو تهور، بحسب الظروف الملائمة لكل صفة من هذه الصفات. ومع ذلك ربط أفلاطون قيام الحرب أو السلم إنما يعود إلى طبيعة التربية والإعداد للإنسان في الدولة المثالية التي يدعو لها، وإن كنت أميل كباحثة إلى القول أن الحرب شر لا بد منه، إذ يستبقها أفلاطون في حالة كونها مدخلاً للسلم ووسيلة له.

٥. وفي ذات السياق، نجد أن فلسفة أرسطو بصدده موضوع الحرب، تجد لها مكانة متميزة في مؤلفاته ذات الطابع الخلفي والسياسي والقانوني الدستوري، إذ تناولها أرسطو في كتبه المعروفة في هذا الجانب، مؤكداً على حقيقتين رئيسيتين هما: الأولى تقول بجوهرية الحرب في ثنانيا النفس الإنسانية، ولاسيما في جزئها الغضبي الذي لربما يتسم بالعدوانية، أما الحقيقة الثانية فهي تنتمي للبعد الجغرافي وموقع الإقليم والمناخ وأثرهما في سلوك البشر من حيث اكتسابهما

للشجاعة أو الخوف، أو حبهم للحرية أو خنوعهم للاستبداد والذل، فضلاً عن أن الحرب وان أخذت طابعاً جوهرياً في فلسفته ومدينته المثلى بالتحديد، فإن هذا لا يعني أن تتجرد الحرب من عدالتها، فلم تكن للحرب غاية إلا السلام، وهو ما أصر على توضيحه أرسطو مرراً وتكراراً بشكل مباشر أو غير مباشر، إذ رفض أن تكون الحرب آلة للسحق والتدمير والاستعباد، إنما هي آلة لتحقيق السلام المشروع المقام بالطرق الشرعية لا الدموية، بقوله: نحارب لنكون في سلام وصلح.

٦. أما الفلسفة الإسلامية، فنجد على سبيل المثال أن الفارابي قد انطلق من مفهوم الجهاد بوصفه فرضاً دينياً إسلامياً لتأصيل فكرة حتمية الحرب ضمن فلسفته، حيث دعا بدوره إلى نظام عالمي فاضل هو مجتمع عالمي يضم داخله أمماً يحكمها دستور عادل، عاكساً بذلك تاريخه الإسلامي. وهذه الدعوة لا يمكن لها النجاح دون وجود رئيس دولة له من المؤهلات والاستعدادات النفسية والفطرية للجهاد والحرب، لان بعض المجتمعات قد لا تستجيب بالطرق الإقناعية بل تحتاج إلى الإكراه للاستجابة، في الوقت الذي تظهر فيه مجتمعات قائمة بوجودها على الغلبة، أو ذات طبائع عدوانية بحكم بيئتها الجغرافية التي تناولها الفارابي بالبحث والتمحيص، حينما آستنتج ما يشكله الدور الجغرافي والمناخي وتأثيره في طبيعه الإنسانية من أهمية تذكر، فيما يخدم الحرب أو يعارضها، معتمدين على هذا الموقف بوصفه دليلاً في تأكيد جوهريه الحرب ضمن فلسفة الفارابي.

٧. ولموضوعه الحرب في فلسفة ابن سينا، نجد أن ذلك الموضوع يشغل أهمية من خلال تقسيمه لمدينته الفاضلة إلى مراتب، وتخصيصه المرتبة الثالثة للحفظ، ذلك أنه قد أدرك أهمية الحرب والتنظيم العسكري ضمن مدينته، التي جعلها ضمن المهام الرئيسية لخليفة أو رئيس هذه المدينة، هذه المدينة التي يتحدد الاجتماع فيها بدلالة الشريعة الإسلامية في كل ما يخص أنظمتها التشريعية المطبقة في المدينة؛ لأنه أدرك وجود مدن بحد ذاتها قائمه على الغلبة والاستعباد وغايتها اليسار والكرامة والانفراد لا غير، منطلقاً من تحديد جوهريه الحرب

والعدوانية ضمن النفوس البشرية، حينما عدّ القوه الغضبية في الإنسان هي المسؤولة عن هذا الفعل، إذا ما تجردت من سيطرة القوه الناطقة في فعلها، لكن لا يمكن أن تعزى الحرب والعدوانية عند ابن سينا إلى الجانب الغضبي من النفس فحسب، بل للمؤثر المناخي والجغرافي في الذات الانسانية حينما وسم بعض الأقاليم بصفات تتنوع بين الوحشية الفاسدة، أو الشجاعة و الجلده، التي تتصف بها دون الأقاليم الأخرى.

٨. وفي الفلسفة المغربية، نجد لمفهوم الحرب حضوراً لا يختلف كثيراً عن مضمون فلسفة الفلاسفة المشرقين، فلم يستطيع ابن رشد أن يستغني عن الحرب حينما بدأ ببناء مدينته الفاضلة، وهذا ما جعله يولي اهتماماً كبيراً بالجند وتهيئتهم وتدريبهم وإعدادهم الجسدي والنفسي والمتمثل بالرياضة والموسيقى، وتهيئتهم للكمالات النظرية والخلقية والعملية، إذ أصرّ ابن رشد في إعدادهم وتربيتهم أن يمنعهم من امتلاك أي مال أو عقار بقصد الحفاظ على الشجاعة لديهم، لان الكسب بحسب مفهومه هو قاتل للشجاعة مولد للجبن عند الجند. وما يساعد تأكيد استنتاجنا بجوهريّة الحرب في فلسفة ابن رشد، هو شرط القدرة على الجهاد التي أدرجها من ضمن الشروط الواجب توافرها في رئيس المدينة الفاضلة الذي هو الرئيس والإمام والملك وواضع السنن، فيمكن لهذا الشرط بحسب ما يرى ابن رشد ان يكون له وجوداً ذاتياً نفسياً في رئيس المدينة، اي يمتلك الاستعداد النفسي الفطري للشجاعة والحرب وذلك في الجزء الغضبي من النفس المحكوم بالعقل والحكمة، لأنه إذا ما سيطرت القوه الغضبيه والشهوانية من قوى النفس على الفرد، أو المجتمع بشكل عام ووصلت حد الإفراط، ستصبح صفة الظلم والتعدي هي الغالبة في المدينة. وهذا ما لم يسعى إليه ابن رشد، بل وحاربه وقاومه بشدة.

٩. ويمكن بنظرة موضوعية على فلسفة ابن خلدون، ان تكشف لنا الصور الموحشة بصراعاتها ونزاعاتها ومفاهيمها السياسية والقبلية، وخط سير كل حضارة نحو التنافر والتعاضد أو التوحش والتأنس، فإن قسم ابن خلدون عمر الدولة على ثلاثة أجيال فتقسيمه هذا قائم بحد ذاته على الحرب، يأخذنا من التوحش البدوي

للقبائل ونعرتهم التغلبيية، وعصبياتهم الحاكمة لهم الساعية للملك، إلى التناحر والتطاحن الداخلي بين العصبية المختلفة رغبةً في الكسب من قبل الملك وأعوانه، إلى الصراعات الخارجية والداخلية المتمثلة بالثوار والمطالبة بالحكم، والخارجين على الدولة، وحينما يعرج المرض إلى جيل الحضارة الأخير إلى ان تختفي ويصيبها التيبس. فهذه حالة الحرب الجوهرية في إطار التفسير الحضاري لأبن خلدون التي استوعبت بدورها البنية الجغرافية المناخية وتأثيرها على النفس البشرية من جهة، وعلاقة الحرب ببيولوجية وفسلجة الإنسان من جهة أخرى.

١٠. لا يمكن للحرب أن تخاض دون سبب يحكمها، ويحول دون وجودها اللاشعري، وهذا ما أتمسناه في الفكر الفلسفي قبل أفلاطون، الحرب تأخذ شرعيتها من ضرورتها وعدالتها على السواء لدى هيراقليطس، فيشتق العالم عدالته من الحرب؛ لأنه قائم بذاته عليها. على حين تأخذ الحرب شرعيتها عند أنبازوقليس وفق قانوني الاتفاق والضرورة، كونهما قانونيين إلهيين أزليين، فقد سلم بأن الكون مسير من قبل نظام أزلي محكوم بالآلهة.

١١. من جانب آخر تعود أسباب الحرب لدى أفلاطون، إلى تمازج الطبقات الاجتماعية مع بعضها و تداخلها الذي يهيئ لفعول العدوان في داخل المجتمع الواحد، حينما يكون للعامل الاقتصادي أثره الفعال في هكذا صراعات وحروب، ولم تقتصر الحروب لدى أفلاطون على رد العدوان فحسب، بل على الهجومية أيضاً ، حينما يكون نظام الاسترقاق هو السبب، أو الدعوة لنظام جمهوري عالمي، كنظام فاضل وعادل، عندما تمتلك الدولة لرئيس فيلسوف و حاكم، فهو على وفق رأيه مخرجاً للبشر من حكم المظهر إلى حكم الحقيقة ومن الظلمة إلى النور ومن التعاسة والشقاوة إلى السعادة.

١٢. وعند أرسطو تظهر جوهرية الحرب بارزة في مضمون فلسفته، إلا أن هذا لا يعني أن تتجرد الحرب من عدالتها، فلم تكن للحرب غاية إلا السلام، وهو ما أصر على توضيحه أرسطو مرراً وتكراراً بشكل مباشر أو غير مباشر، إذ رفض أن تكون الحرب آلة للسحق والتدمير والاستعباد، إنما هي آلة لتحقيق السلام المشروع المقام بالطرق الشرعية لا الدموية، بقوله : نحارب لنكون في سلام

وصلح، ومن جهة أخرى يذهب أرسطو وبصدد أنواع الحروب من حيث هي عادلة أو غير عادلة، إلى القول: إن هناك أمما وجدت كعبيد بفعل الطبيعة وهي التي يقع عليها الاختيار وتشن عليها الحروب، أما النوع الآخر من الحرب فهي الحرب الدفاعية وهي مشرعة عند أرسطو لضرورة حماية الدولة وحفظ أمنها سواء الداخلي أم الخارجي، وهو ما جعل وجود الأسلحة وكفايتها ضرورة لا يمكن للدولة الاستغناء عنها.

١٣. أما على وفق ما جاء به الفلاسفة المسلمين، وأولهم الفارابي فقد جاء تقسيمه للحروب إلى عادله و جائرة، حسب تنوع الأسباب لديه، حيث قدمت هذه الأسباب من قبله على وفق قراءته للبيئة الإسلامية الاجتماعية السياسية لمدينته، فلم تأتي هذه الأسباب من المجهول، وذلك للحد من مخاطر الحرب وشروورها، ان استخدمت بطريقه عشوائية، واحد هذه الأسباب المشعلة للحروب و التي أثارت تساؤلاً لدينا، هي وجود أناس ذوي طبع بهيمي وجب إخضاعه بالقوة، فيأخذ تعامل الفارابي مع هكذا مجموعة بشرية جانبيين: لإما الاستعباد والانتفاع منه، أو القتل، لكن الذي يثير الاستغراب أن الفارابي في أكثر من مكان قد أشار إلى صعوبة ان تجتمع الشرور في إنسان واحد، فتهيئه الفرص لان يتحول إلى متوحش يباح قتله هذا من جانب، ومن آخر سمح الفارابي بإخراج كل إنسان معد بالطبع نحو الشر ومكنته العادة في تقبل هذا الشر، من المدينة دون قتله، وفي هذا الجانب يثار تساؤل من قبلنا هو: لماذا شرع الفارابي لقتل سكان المدن المتوحشة بالوقت الذي يوجد فيه من هو شبيهاً بهم داخل المدينة الفاضلة؟؟، ولماذا لم يسع إلى إصلاح التوحش الإنسي إذا كان الإنسان نفسه يمتلك استعداداً طبيعياً نحو الخير والشر بحسب قوله: " عسير وبعيد ان يوجد من هو معد بالطبع نحو الفضائل كلها، الخلقية والنطقية، إعداداً تاماً كما انه عسير ان يوجد من هو بالطبع معد نحو الصنائع كلها. وكذلك عسير وبعيد ان يوجد من هو معد بالطبع لأفعال الشرور كلها ".

١٤. ومع ابن سينا، ومن خلال رؤيته الفلسفية والمجتمعية السياسية لبيئته الإسلامية، كشف عن عمق الحرب وجوهريتها في هذا الواقع، إلا أنها لا تأخذ

لديه حيز التنفيذ دون أسباب شرعية لتنفيذها، اعتمدت على ضرورة نشر النظام الإلهي والشريعة السماوية التي غايتها تحقيق نظام فاضل عادل، وضرورة تطبيق هذا النظام على كل فئة بشرية سواء أكانت حاملة للسيرة الحميدة أم من أهل الضلال حسب تعبيره، فإذا استوجبت الأمور بإهلاك أهل الضلال تم ذلك، أو بالخروج على الخليفة حينما لا يستوفي الشروط اللازمة لتسلمه زمام الحكم كخليفة للمسلمين، وهنا يأخذ فعل الثورة عدالته. من جانب آخر قد شرع ابن سينا للحرب في حاله الحاجة؛ لامتلاك العبيد واستعبادهم، منطلق في هكذا تشريع للحروب الهجومية، من وجود عبيد بالطبع أو بالفطرة، ضعيفي العقول، يسكنون الأقاليم غير الشريفة، على الرغم مما أورده ابن سينا من تعريف للفطرة بأنها توهم حصول العقل وامتلاكه دون أن يسمع رأي أو يتبع مذهباً معيناً، ما يأخذنا للقول بعدم وجود من هو عاقل بالطبع أو غير عاقل بالطبع، فيمكن للخلق غير الشريف الفاسد أن يصبوا إلى التمدن إذا ما عولج ضمن الأقاليم الشريفة، أو ضمن مجتمع متمدن متحضر، لذلك طرحنا سؤالنا حول اعتماد الأسباب السابقة في استعباد فئات معينة من البشر، بالقول هل يكفي كونهم من سكان الأقاليم الشريفة لاستعبادهم؟.

١٥. ومع ابن رشد، يكمن للباحثة أن تخلص إلى انه قد شرع للحروب، على وفق أسباب عادلة تتحصر بنشر الدعوة الإسلامية والشريعة الإلهية، والسعي إلى نشر نظام المدينة الفاضلة، فقد عني بالنظام الإسلامي كنظام فاضل يحقق السعادة لأي مدينة أكثر من اهتمامه بمساحة السيطرة العربية الإسلامية. وهذا ما جعل الحرب لديه ضرورة وليست غاية على الرغم من جوهريتها، و على الرغم من تنوع أسبابها بين أسباب اقتصادية واجتماعية وحتى دينية وسياسية.

١٦. استنتجنا من خلال قراءتنا لفلسفة ابن خلدون ان كل ممارسه حربه توجب شرط توافر العصبية التي ينطلق منها السبب الرئيسي لقيام الحرب ليكن ممكناً، فالعصبية هي المؤثر الأول لنجاح أو أخفاق الحرب، سواء أكانت هذه الحروب عادله تتجسد بالجهاد والغضب لله ونشر الدعوة الدينية، وحتى الغضب للملك الذي أخذ بأسباب متعددة كسلب زمام الحكم من داخل الدولة أو من خارجها، أو

المطالبين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. أو حروب غير عادله عدوانيه تتمثل بالفتنة والعدوان، تتوزع أسبابها بين أسباب اقتصادية، أو الغيرة والمنافسة، أو بدافع الثأر.

١٧. هذه الرسالة كشفت عن عدة جوانب جديدة، بل كانت مستورة نوعاً ما في الفكر الفلسفي الإسلامي، فموضوعة الحرب التي بحثنا فيها هنا دليل على مكانة الفلسفة الإسلامية ومدى مساهمتها العميقة والجادة في تناول هكذا موضوعات، مشكلة نوعاً من الاستقلالية الفكرية والفلسفية عن الفلسفة اليونانية، ومعبرة عن شخصيتها الممتزجة بمعطيات الدين الإسلامي والحضارة الإسلامية.

١٨. ترى الباحثة أن ثمة موضوعات ذات صلة بالحرب ما زالت تحتاج إلى درس وبحث واستقصاء برسائل جامعية أخرى، منها ما يخص مواقف الفلاسفة الغربيين من الحرب، ومنها ما يخص أثر البيئة والمناخ على سلوك الإنسان ودعوته للحرب، ومنها الموقف الفلسفي من السلم بأزاء الدين ومعطياته من هذا الموضوع.